الاتحاد السوفييتي أواخر الأربعينيات وحتى الستينيات من القرن العشرين من طائرات التجسس إلى نشر الكتب

المعلومات.. مئات من الشباب الأمريكيين والمهاجرين الروس ضحوا بأرواحهم لكي تتمكن الولايات المتحدة من تجميع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الاتحاد السوفييتي.. تقريباً معلومات مهما كان نوعها عن الأرض التي وصفها تشرشل بأنها «أحجية ملفوفة بغموض في داخل لغز».

بيد أنه لا يوجد أي دليل على أن أياً من المعلومات التي جُمعت أنقذت حياة أي إنسان، أو خدمت أية غاية مفيدة للعالم. حالياً، هناك أطنان من الملفات المليئة بتقارير، ومجلدات من معلومات نسخت من الكومبيوتر، وأشرطة، وصور فوتوغرافية، الخ، مكدسة في خزائن وقد علاها الغبار في مستودعات داخل الولايات المتحدة وألمانيا الغربية. ولعل جزءاً كبيراً من هذه المواد قد أُتلف، والكثير منها لم يلق عليها أحد نظرة ولن يلقي عليها أحد نظرة.

اعتباراً من أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، أرسل الجهاز العسكري الأمريكي، ووكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي، بصورة منظمة، طائرات للتحليق فوق حدود الاتحاد السوفييتي لجمع معطيات بصرية، وفوتوغرافية والكترونية ذات طبيعة عسكرية أو صناعية، ولاسيما ما يتعلق منها بالصواريخ والقدرة النووية السوفييتية. إن طائرات وأجهزة متطورة ومعقدة بصورة متزايدة، وكذلك أقماراً اصطناعية وغواصات ومراكز تنصّت الكتروني في تركيا وإيران، أنتجت كميات ضخمة من مدخلات الكومبيوتر. في بعض الأوقات، كانت الطائرات تنحرف دون قصد فتحلّق فوق الأرض السوفييتية، وفي أوقات أخرى كانت تفعل

ذلك عامدة من أجل تصوير هدف معين، أو لتفعيل منشآت الرادار من أجل التقاط إشاراتها، أو لتقييم رد فعل الدفاعات الأرضية السوفييتية ضد أي هجوم. لقد كانت لعبة خطرة «بالصوص» الجوي وفي أحيان كثيرة كانت الطائرات تقابل بنيران الدفاع الجوي أو بطائرات مقاتلة سوفييتية.

في كلا العامين ١٩٥٠ و١٩٥١ أسقطت طائرة تجسس على متنها عشرة أشخاص لم ينجُ أحد منهم. وفي العام ١٩٦٩ اعتبر ملاحو إحدى الطائرات وعددهم ٣١ في حكم المفقودين، هذه المرة أسقطتهم مقاتلات كوريا الشمالية فوق بحر اليابان. وخلال السنوات الواقعة بين التاريخين، وقعت عشرات الحوادث الجوية بين طائرات أمريكية وقوة نارية شيوعية، نجمت عن مئات، إن لم نقل آلاف الطيران التجسسي. بعض طائرات التجسس تمكنت من العودة سالمة إلى القاعدة (التي قد تكون في تركيا، أو إيران، أو اليونان، أو باكستان، أو اليابان، أو النروج) بعد أن تكون تعرضت لهجوم وحتى بعد أن تكون قد أصيبت.. أسقطت طائرات أخرى ونجمت عن إسقاطها خسارة في الأرواح، أو وقوع ركاب الطائرة في الأسر السوفييتي(١).

هنالك ارتباك كبير بشأن إحصاء عدد ومصير الطيارين الأمريكيين الذين أسرهم السوفييت بعد هبوط طائراتهم هبوطاً اضطرارياً، وإسقاطها خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. لقد ذكر الرئيس الروسي بوريس يلتسين في عام ١٩٩٢ أن تسع طائرات أمريكية أسقطت في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين وأن اثني عشر أمريكياً من الناجين أسروا ولم يكتشف بعد مصيرهم النهائي. بعد ذلك بخمسة شهور، أبلغ (ديمتري فولكوغونوف Dimitri Volkogonov)، الجنرال السوفييتي السابق، والرئيس الشريك للجنة روسية - أمريكية كانت تحقق في كامل موضوع الأمريكيين المفقودين، أبلغ لجنة تابعة لمجلس الشيوخ الأمريكي أن ٧٣٠ طياراً وقعوا في الأسر خلال طيران التجسس في الحرب الباردة (٢).

الأبرز بين هذه الحوادث كان بطبيعة الحال إسقاط طائرة (يو- تو U-٢) التي كان يقودها فرانسيس غاري باورز Francis Gery Powers) بتاريخ الأول من أيار

(مـايو) ١٩٦٠. إن طائـرة (يو - تو) التي تسـتطيع التـحليق على ارتفـاع كـبيـر جـداً، طُورت بسبب إمكانيـة إصابة وإسقاط الطائرات التي تحلق على ارتفـاعات عادية. إن اختـفاء باورز وطـائرته (اليـوتو) في مكان مـا مـن الاتحـاد السـوفيـيتي أوقع حكومـة الولايات المتحـدة علناً في فخ التورط في قصـة كاذبة لتغطيـة الموضـوع، وفي أقـوال إنكارية وتعـديلهـا. في النهـاية، عندمـا عـرض الروس باورز وطائـرته أمـام العـالم، لم يكن أمـام الرئيس ايزنهـاور بديل سـوى الإقـرار بالحقـيقـة. غـيـر أنه أضـاف بصـورة جـارحــة: ان تحليق طـائرات مـن نوع تحليق طـائرة (يو- تـو) «هـو أمــر كــريه ولكنه حيـوي)، إذا أخـذنا بالاعـتـبـار أن الروس هـم «مـجـتـمع سـرية وإخـفـاء» [٣]. أحـد مـستـشـاري ايزنهـاور (ايميت جـون هيـوز Emmet John Hughs) ذكـر في وقت لاحق أن الأمـر يتطلب من الإدارة الأمـريكية سـتة أيام فـقـط «لتـحـول الـكذب الذي لا يقـبله العقل إلى حق سيادي» [٤].

في مناسـبـات كثـيـرة احـتـجت الولايات المتحـدة لدى الاتحـاد السـوفيـيـتي على الهجمات السوفييتية التي تعـرضت لها طائرات أمريكيـة لم تكن فعـلاً فوق الأراضي السوفييتية بل فـوق بحـر اليابان، على سبيل المثال. إن هـذه التحليقـات، مـع أنهـا كانت للتجسس، لكن إذا تحدثنا بدقة نجد أنها مقبولة بموجب القانون الدولي.

إن أخطر عـاقبـة من عـواقب مـسـألة طائـرة يو- تو كانت أنهـا حكمت بالفـشل على اجتماع قمة بين ايزنهاور وخروشوف كان مقرراً له أن يعقد في باريس بعد أسبوعين من حادث اليو- تو، وكان معلقاً عليه أمل كبير في السلام والوفاق من سائر شعوب العالم.

هل كانت قضية اليـو- تو حادثاً سيئ الحظ في التوقيت حكم عليه التاريخ أن يكون هكذا؟ إن (الكولونيل ل. فليـتـشـر بروتي Col. L.Fletcher Prouty)، الضـابط المتقـاعـد من سـلاح الجـو الأمـريكي، يقـول خـلاف ذلك. لقـد خـدم بروتي من العـامين ١٩٥٥ و١٩٦٣ كضـابط ارتبـاط بين وكـالة المخـابرات المركـزية والبنتـاغـون في مـسـائل تخص تقديم المسـاندة العسكرية إلى «عمليـات خاصـة». يقول بروتي في كتابه بعنوان (الفـريق السـري The Secret Team): «إن وكـالة المخـابرات المركـزية وزمـلاء معـينين

من الوكالة في البنتاغون قد خربوا هذا التحليق بالذات من قبل طائرة يو- تو، والتي كانت المرة الأخيرة المقرر تحليقها فيها قبل موعد القمة. يفترض أنهم فعلوا ذلك لأنهم لم يستطيبوا تخفيف توترات الحرب الباردة التي هي أساس وجودهم».

بحسب افتراض روتي أن الأسلوب الذي استخدم كان بسيطاً إلى حد لافت للنظر. فمحرك طائرة يو- تو يحتاج إلى حقنات من الهيدروجين السائل للمحافظة على ارتفاع الطائرة في الجو ارتفاعاً كبيراً للغاية، الأمر الذي يجعلها خارج نطاق القوة النارية السوفييتية وخارج مدى الطائرات الاعتراضية. فإذا كانت حاوية الهيدروجين قد ملئت جزئياً عند الإقلاع من تركيا، ستكون المسألة مسألة وقت - أي أنها محسوبة بحيث تصادف وجود الطائرة فوق الأراضي السوفييتية - أي قبل أن تضطر الطائرة للهبوط إلى مستوى أدنى. عند هذا الحد، ليس هناك ما يؤكد هل أُسقطت الطائرة فعلاً أم أن باورز اختار الهبوط بمظلة تاركاً الطائرة لتسقط وتتحطم. لقد ادعى الاتحاد السوفييتي أنه أسقط طائرة اليو- تو بصاروخ وهي على ارتفاعها العالي المعتاد، ولكن ربما كان هذا الادعاء كاذباً وأنه عائد إلى الفشل المسبب للإحباط على مدى أربع سنوات في إسقاط طائرة يو- تو واحدة وهي في الجو. على أية حال تمكن الروس من أن يعرضوا أمام العالم طائرة تجسس في حالة سليمة جزئياً مع طيار جاسوس في حالة سليمة بالكامل، حاملاً معه كل أنواع الأوراق التي تدينه، مع إبرة للانتحار غير مستعملة. يقول بروتي: «إن وجود أوراق التعريف بالهوية لم يكن بسبب السهو، بل كان متعمداً، لأن لا الطيار ولا الطائرة أزيلت عنهما العلامات الفارقة في هذه الرحلة وفقاً لما هو مطلوب في الرحلات الأخرى» [٥].

إن باورز لا يتحدث في كتابه عن موضوع الهيدروجين السائل إطلاقاً، فهو يعتقد أن طائرته جرى تعطيلها وأُرغمت على الانحدار بواسطة موجات صدمة من صاروخ سوفييتي اقترب منها. ولكنه يتحدث عن مشاكل فنية في الطائرة قبل اقتراب الصاروخ المفترض منها [٦].

في ضوء الضجة التي سببها إسقاط طائرة ركاب تجارية كورية جنوبية من قبل الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٨٣، ادعى الروس أنها كانت تقوم بأعمال تجسس، فإنه يثير اهتمامنا أن نلاحظ أن بروتي يذكر أيضاً أن الولايات استخدمت في إحدى المرات طائرة تجارية وطنية ظاهرها أنها في رحلة نظيفة، وأن الطائرة المذكورة تنتمي إلى بلد أجنبي غير محدد «للقيام ببعض التصوير التجسسي أو بمشروع سري آخر» [٧].

بالنسبة للروس، طائرات التجسس كانت تشكل أكثر من مجرد انتهاك لمجالهم الجوي، ورفضوا الفكرة التي طرحتها الولايات المتحدة ومفادها أن التحليقات هي مجرد شكل آخر من أشكال التجسس - «أنشطة جمع معلومات استخبارية تمارسها جميع البلدان» على حد قول واشنطن[٨]: (آنذاك لم يكن ثمة ما يشير إلى تحليقات سوفييتية فوق الولايات المتحدة) [٩] لقد كانت نظرة الروس إلى هذه التحليقات أنها بصورة خاصة استفزازية لأن الطائرات وسيلة من وسائل الأعمال الحربية، وأنه يمكن اعتبارها بداية لأعمال حربية. وقد تكون حاملة للقنابل. ولم يغب عن ذاكرة الروس ان النازيين مهدوا لغزو الاتحاد السوفييتي برحلات استكشاف متكررة فوق أراضيهم. ولم ينسوا أيضاً أن طائرات أمريكية تحمل قنابل نووية حلقت في شهر نيسان (ابريل) ١٩٥٨ فوق المحيط المتجمد الشمالي باتجاه الاتحاد السوفييتي بسبب شارة إنذار زائف ظهرت على الرادار الأمريكي. صدر الأمر لهذه الطائرات بالعودة عندما كان يفصلها عن الاتحاد السوفييتي طيران مدته ساعتان فقط.

لم يحدث أن ألقت طائرة أمريكية قنابل على الاتحاد السوفييتي، ولكن العديد منها أنزلت رجالاً لتنفيذ مهمات عدائية. هؤلاء الرجال الذين أنزلوا من الجو كانوا من الروس الذين هاجروا إلى الغرب حيث جندتهم وكالة المخابرات المركزية وأجهزة الاستخبارات الغربية الأخرى.

منظمة المهاجرين الرئيسية عُرفت باسم «التحالف الوطني للتضامنيين الروس» أو «اتحاد العمال الوطني»، وكانت مؤلفة بصورة رئيسية من مجموعتين متباينتين: أبناء الروس الذين ذهبوا إلى الغرب عقب الثورة، ثم أولئك الروس ممن استقر بهم

المقام في أوروبا الغربية في نهاية الحرب العالمية الثانية، إما بفعل الظروف أو باختيارهم. وأيضاً كلا المجموعتين كانوا قد تعاونوا مع النازيين خلال الحرب. ومع أن التحالف الوطني للروس التضامنيين (NTS) كان يصنف بصورة عامة في الجناح اليميني لمختلف منظمات المهاجرين، فإن تعاونهم كان بدافع العداء للستالينية أكثر مما هو موالاة للنازية.

كانت قاعدة (NTS) الرئيسية في ألمانيا الغربية، حيث كانت وكالة المخابرات المركزية طوال الخمسينيات من القرن العشرين هي المحسنة الرئيسية للمنظمة، وغالباً سندها الوحيد. وكانت الوكالة توفر لأعضاء (NTS) التدريب الموسع في مدرسة تابعة لوكالة المخابرات المركزية أقيمت في ألمانيا تحمل اسماً يبهر الإنسان هو «معهد دراسة الاتحاد السوفييتي»، كما في مدارس أخرى في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، وبعد هذا التدريب كان يتم إنزالهم من الجو في الأراضي السوفييتية. كان هؤلاء الرجال يهبطون على أرض بلدهم الأصلي مجهزين تجهيزاً جيداً بالمعدات، وبكل شيء ابتداء من الأسلحة إلى الدراجات الهوائية التي تطوى، وملابس رجال الضفادع والحصيرة المطاطية لعبور أسيجة الأسلاك الشائكة المشحونة بالكهرباء.

كان الروس يعادون إلى بلدهم الأصلي لأسباب متنوعة: لجمع معلومات استخبارية عن المنشآت العسكرية والتكنولوجية، ارتكاب أعمال الاغتيال، الحصول على نماذج حديثة من وثائق التعريف بالهوية، مساعدة العملاء الغربيين على الهرب، القيام بأعمال تخريبية تدربوا عليها تدريباً جيداً (أساليب إخراج القطارات عن السكة الحديدية، تدمير الجسور، القيام بأعمال ضد مصانع السلاح ومراكز إنتاج الطاقة الخ)، أو التحريض على النضال السياسي المسلح ضد الحكم الشيوعي عبر إقامة صلة مع حركات المقاومة، وهذا هدف غير واقعي بالمرة نظراً لضعف هذه الحركات، باستثناء واحدة منها أقسم يمين الولاء لها أعضاء من (NTS) المتعصبين.

لا يمكن قط معرفة عدد الرجال الذين أرسلتهم تسللاً وكالة المخابرات المركزية إلى الاتحاد السوفييتي، ليس فقط عن طريق الجو بل باجتياز الحدود وبالقوارب أيضاً. ربما كان العدد مئات كثيرة على أقل تقدير. أما فيما يتعلق بمصيرهم، فقد نشر الاتحاد السوفييتي كتاباً في عام ١٩٦١ بعنوان (قبض عليهم متلبسين Caught in the Act) وقد تضمن الكتاب أسماء أكثر من عشرين متسللاً ادعى الروس أنهم قبضوا عليهم، في أكثر الأحيان فور وصولهم تقريباً، كما تضمن الكتاب تفاصيل أخرى عنهم. بعضهم أُعدم، آخرون صدرت بحقهم أحكام بالسجن، وقيل: «إن واحداً كان فرداً سبق له ان اشترك في إعدام اليهود بالجملة في منطقة الاحتلال السوفييتي في ألمانيا.» يؤكد الكتاب أن كثيرين آخرين قبض عليهم ولم يرد ذكرهم في الكتاب. لعل هذا كلام لخدمة الذات، لأنه كان من السهل نسبياً للروس أن يتسللوا إلى صفوف المهاجرين في أوروبا الغربية وأن يعرفوا منهم كامل العملية.

بالتأكيد لم تكن وكالة المخابرات المركزية ساذجة بالنسبة لهذا الأسلوب. فقد وصل بها الأمر إلى حد تعذيب الذين اشتبهت بانشقاقهم في ميونيخ - باستعمال أساليب مقصورة على عدد محدود كسكب مادة التربانتين على خصيتي الرجل أو حبس شخص ما في حجرة وعزف موسيقا أندونيسية بمستويات تسبب الصمم إلى أن ينهار [١١]. ادعى الروس أيضاً أن بعض الذين جرى تهريبهم كانوا مزودين بجهاز إرشاد ضوئي لاسلكي لتوجيه الطائرات إلى مكان إنزال العملاء الآخرين، كما يمكن استعماله لتوجيه قاذفات القنابل الأمريكية في حالة نشوب حرب.

بعض المهاجرين أفلحوا في العودة إلى أوروبا الغربية بما جمعوا من نتف المعلومات، أو بعد محاولة تنفيذ مهمة أخرى. في حين أن آخرين، تم تزويدهم بمجموعة كاملة من الوثائق الضرورية، صدرت إليهم تعليمات بأن يندمجوا في المجتمع السوفييتي ليصبحوا «عملاء محليين». هنالك آخرون طغت عليهم عواطف العودة إلى «الوطن» فسلموا أنفسهم. مرة أخرى «العامل الإنساني» الذي لا تستطيع أية كمية من التدريب أو تلقين الأفكار أن تلتف عليه [١٢].

ما من عملية أمريكية ضد الاتحاد السوفييتي لها حظ من التمام بدون جانبها الدعائي Propaganda أي حمل الإنجيل إلى الوثنيين بطرق عديدة جداً تكشف عن الطاقة الإبداعية لدى وكالة المخابرات المركزية وفريقها من المهاجرين.

لقد طُورت آليات جديدة لتمكين الطائرات والمناطيد من إسقاط منشورات معادية للشيوعية فوق الاتحاد السوفييتي. وعندما كانت الريح تهب في الاتجاه الصحيح كانت أعداد لا تحصى من النشرات والكتيبات تلقى على الأرض من الجو، أو كانت كميات من المطبوعات ترسل عائمة عبر الأنهر في رزم لا ينفذ إليها الماء.

عندما كان مواطنون سوفييت يأتون إلى الغرب كان يستقبلهم عند كل منعطف أشخاص من (NTS) ويقدمون لهم الصحف والمجلات التي يصدرونها باللغتين الروسية والأوكرانية. وتسهيلاً لإقامة اتصالات، كانت (NTS) تنخرط أحياناً في عمليات السوق السوداء فتفتح دكاكين صغيرة تبيع بضائع إلى الروس بأسعار رخيصة. ومن شمال أفريقيا إلى اسكندينافيا كانت شبكة وكالة المخابرات المركزية تواجه البحارة والسياح والمسؤولين والرياضيين الروس، وحتى الجنود الروس في ألمانيا الشرقية، لتقدم لهم الحقيقة كما يراها «العالم الحر»، وكذلك لاقتناص المعلومات منهم، ولإغرائهم بالانشقاق عن بلدهم ولتجنيدهم كجواسيس. كان يجري تفتيش الغرف في الفنادق، والتنصت على الهواتف، وتقديم الرشا أو الابتزاز بالتهديد في محاولات لتحقيق هذه الغايات. وكانت تجري أعمال لإيقاع دبلوماسيين سوفييت في الفخ أو لاستفزازهم بحيث يتسبب ذلك بطردهم و/ أو إحراج الاتحاد السوفييتي [١٣].

حملة الدعاية دفعت الحكومة الأمريكية إلى العمل في مجال نشر الكتب تحت ترتيبات متنوعة مع ناشرين وموزعين وشخصيات أدبية ومؤلفين أميركيين وأجانب، وكانت وكالة المخابرات المركزية ووكالة المعلومات الأميركية تنتج أو تموّل أو ترعى «أكثر من ألف كتاب» مع حلول العام ١٩٦٧، وكانت هذه الكتب موجهة نحو غاية

دعائية [١٤]. لقد بيع العديد من هذه الكتب في الولايات المتحدة وأيضاً في الخارج. وما من كتاب منها حمل أية إشارة تدل على علاقة للحكومة الأميركية. لقد قالت وكالة المعلومات الأميركية عن بعض هذه الكتب: «إننا نشرف على العمل من الفكرة ذاتها وصولاً إلى المخطوطة في صيغتها النهائية» [١٥].

بعض الكتب كان يُنشَر، وأحياناً يُكتب، فقط بعد موافقة وكالة المعلومات الأميركية أو وكالة المخابرات المركزية على شراء عدد كبير من النسخ. وما من سبيل لمعرفة أثر هذا الحافز المالي على الناشر أو المؤلف فيما يتعلق بلهجة الكتاب وتوجهه. في بعض الحالات كانت واشنطن تسمح بتقديم معلومات سرية إلى أحد المؤلفين أو كانت تساعده في تأليف الكتاب. في عام ١٩٦٧، عقب الكشف عن أنشطة وكالة المخابرات المركزية في الداخل، وصل هذا الأسلوب في العمل إلى نهايته في الولايات المتحدة مع أنه استمر في الخارج. لقد ذكرت إحدى لجان مجلس الشيوخ الأميركي في عام ١٩٧٦، أن وكالة المخابرات المركزية كانت لها علاقة خلال بضعة الأعوام السابقة بنشر نحو ٢٥٠ كتاباً، معظمها بلغات أجنبية [١٦]. بعض هذه الكتب كانت في معظم الحالات تعاد طباعتها في الولايات المتحدة.

غير أن الهوية الحقيقية لمعظم الكتب لا تزال قيد السرية. من بين الكتب التي كُشِفَ عنها، الكتب التالية: «ديناميكيات المجتمع السوفييتي» بقلم (والت روستوف Walt Rostow) و «الطبقة الجديدة» بقلم (ميلوفان دجيلاس Milovan Djilas)، و«مختصَر تاريخ الحزب الشيوعي» بقلم (روبرت أ. بيرتون Robert A. Burton)، و«برامج المساعدة الخارجية التي تقدمها الكتلة السوفييتية والصين الشيوعية» بقلم (كورت مولر Kurt Muller)، و «السعي لنظام عالمي» بقلم (ريتشارد ن. غاردنر Richard N.Gardner)، و «بيكين والحروب الشعبية» بقلم الميجر جنرال (سام غريفيث Major General Sam Grifith)، و «طريقة ينان» بقلم (يويوسيو رافينز Eudocio Ravines)، و «الحياة والموت في روسيا السوفييتية» بقلم (فالنتين غونزالز Valentin Gonzalez)، و «تلة النمل» بقلم (سوزان لابين Suzanne Labin)،

و«سياسة الكفاح: الجبهة الشيوعية والحرب السياسية» بقلم (جيمس د. أتكنسون James D. Atkinson)، و «من الاستعمار إلى الشيوعية» بقلم (هوانغ فان تشي Hoang Van Chi)، و «لماذا فيتنام»؟ بقلم (فرانك تراجر Frank Trager)، و«الإرهاب في فيتنام» بقلم (جي مالين Jay Mallin). إضافة إلى ذلك موّلت وكالة المخابرات المركزية ووزعت في سائر أنحاء العالم الفيلم الكرتوني الذي وضعه (جورج أورويل George Orwell) وعنوإنه «مزرعة الحيوان» (١٧).

إن الاختراق الدعائي للكتلة الاشتراكية الأشد تحريفاً كان بواسطة الموجات الهوائية: إن العديد من أجهزة البث، ونسبة عالية من الكهرباء، وفي أكثر الأحيان برمجة على مدار الساعة قد أوصلت (إذاعة الحرية) و(إذاعة روسيا الحرة) إلى الاتحاد السوفييتي، وإذاعة (أوروبا الحرة) و(إذاعة القطاع الأميركي الموجهة إلى أوروبا الشرقية) وإذاعة صوت أميركا الموجهة إلى جميع أنحاء العالم. وباستثناء هذه الإذاعة الأخيرة، فإن محطات الإذاعة المذكورة كانت في ظاهرها مؤسسات خاصة تمولها «منح» من شركات أميركية وتبرعات صغيرة من الشعب الأميركي ومن مصادر خاصة أخرى. في واقع الأمر موّلت وكالة المخابرات المركزية سراً جميع التكاليف تقريباً حتى عام ١٩٧١. إن فضح دور الوكالة في عام ١٩٦٧ (مع أنه كان يفترض على نطاق واسع وجود هذا الدور قبل ذلك بوقت طويل) أدى إلى تشريع الكونغرس الأميركي لاحقاً بتمويل حكومي مكشوف لهذه المحطات.

أدت هذه المحطات خدمة لغرض ملء بعض الثغرات وتصحيح بعض الأكاذيب في الإعلام الشيوعي، ولكنها لم تتمكن من التهرب من تقديم صورة للعالم، بشرقه وغربه، صورة التقطت بهفواتها وتشويهاتها. إن مهمة هذه المحطات في الحياة كانت التأكيد على كل ما يمكنه أن يظهر أن أنظمة الحكم الشيوعية تبدو سيئة. وقد كتب (فيكتور مارشيتي Victor Marchetti)، وهو مسؤول كبير سابق في وكالة المخابرات المركزية يقول: «بالنسبة لكثيرين في الوكالة كانت القيمة الأولى للإذاعات هي في زرع الاستياء في أوروبا الشرقية ومن خلال ذلك إضعاف الحكومات الشيوعية» (١٨).

كثيرون من الروس الذين عملوا متعاونين مع محطات إذاعة مختلفة، كانت تركز طويلاً على الحرية، والديموقراطية والاهتمامات الإنسانية الأخرى جرى الإعلان لاحقاً عن هوياتهم من قبل وزارة العدل الأميركية كأعضاء في مؤسسة (إينساتز غروبين Einsatzgruppen) السيئة الصيت التي أنشأها هيتلر والتي كانت تجمع العديد من اليهود في الاتحاد السوفييتي وتقتلهم. أحد منفذي هذه الأعمال كان (ستانسلاف ستانكييفيتش Stanislaw Stankievich) الذي تحت إمرته قتل اليهود بأعداد كبيرة في بيلاروسيا وفي هذه المجزرة دفن أطفال أحياء جنباً إلى جنب مع الموتى، وربما حدث ذلك توفيراً للذخيرة. انتهى الأمر بالمدعو ستانكيفيتش عاملاً في إذاعة الحرية. كذلك فإن مجرمي حرب من الألمان قد استخدموا من قبل وكالة المخابرات المركزية في عمليات متنوعة معادية للسوفييت [١٩].

كل المرويات تخبرنا أن البرامج المتنوعة لتجميع معلومات استراتيجية عن الاتحاد السوفييتي، وخاصة عبر التسلل إلى البلد وتشجيع المواطنين السوفييت في الغرب، كانت إخفاقاً ذريعاً. المعلومات التي تنقل كانت عادة تافهة، غير متجانسة، مشوهة أو فات أوانها. أسوأ من ذلك، أنها كثيراً ما كانت مزوّقة، إن لم تكن مختلقة من أساسها. كثيرون من مهاجري ما بعد الحرب في أوروبا الغربية كانوا يعتمدون في معيشتهم على العمل في جمع المعلومات، وبضاعتهم كانت الأكثر رواجاً، وهؤلاء كانوا يكتبون من مضمون اجتماع حقيقي أو من صنع الخيال مع مواطن سوفييتي تقريراً هو في أكثر الأحيان متضمناً حقائق عادية يضيفون إليها شيئاً من التلوين السياسي. وأحياناً كانت توضع صيغ للتقرير قد تبلغ أربع صيغ مختلفة في الأسلوب وفي كمية «الحقائق»، يكتبها أربعة أشخاص مختلفين، ثم تباع هذه التقارير كل على حدة إلى أجهزة المخابرات الأمريكية، والبريطانية، والفرنسية والألمانية والغربية. أما الصيغة التي تباع إلى وكالة المخابرات المركزية فقد كانت تحتوي على كل ما تتضمن الصيغ الأخرى وترسل في النهاية إلى الوكالة من قبل البلدان الأخرى بدون الكشف عن مصدرها. إن تحليل جميع التقارير كان يميل إلى إعطاء الوكالة الاستنتاج بأن منظمة (NTS) كانت تقدم لها أكمل صورة من

صور جميع المصادر الأخرى وأن المعلومات كانت منسقة. كانت منظمة (NTS) تبدو جيدة، وكانت الملفات تزداد سماكة [٢٠].

في تلك الأثناء كانت الملفات الروسية لدى وكالة المخابرات المركزية في واشنطن تقترب من أحجام هائلة بوصول المعطيات المستمدة من فتح البريد بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، الذي بدأ في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين واستمر على أقل تقدير حتى السبعينيات من القرن ذاته[٢١]. (قال مستشار لمكاتب البريد في عام ١٩٧٩ «لو لم يكن هناك برنامج لتغطية بريد الأمن القومي، لربما كان مكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) قد حيل بينه وبين معرفة ما إذا كانت دولة ما تخطط لشن حرب علينا»[٢٢].

إن (هاري روستزكي Hurry Rositzke) المسؤول السابق في وكالة المخابرات المركزية، والذي كان مشاركاً عن قرب في العمليات ضد السوفييت بعد الحرب، كتب في وقت لاحق أن المهمة الأولى التي أسندت إلى المهاجرين الذين تسللوا إلى الاتحاد السوفييتي خلال السنوات المبكرة - ولعل ذلك يمكن أن يقال عن طائرات التجسس - كانت توفير «إنذار مبكر» بهجوم عسكري سوفييتي على الغرب، أي غزو كان يبدو دائماً في أذهان مقاتلي الحرب الباردة في الحكومة الأمريكية، «وشيك الحدوث». هذا الخوف كان يذكرنا بصيحات الإنذار التي كانت تتردد عقب الثورة الروسية (راجع مقدمة الطبعة الأصلية) وانتعش هذا الخرق بالرغم من أن روسيا تعرضت مؤخراً لدمار من جراء حرب كبرى وبالكاد كان وضعها يمكنها من القيام بعملية عسكرية من حجم كهذا. مع ذلك، كتب روستزكي «كان التقدير الرسمي أن القوات السوفييتية كانت قادرة على الوصول إلى القنال الانكليزي في غضون أسابيع.. كانت إحدى البدهيات في واشنطن أن ستالين كان يخطط للحرب. ولكن متى تحدث الحرب»؟. بيد أنه نوّه بأن «مجرد وجود عملاء مزودين بأجهزة لاسلكية على الأرض السوفييتية دون أن يضطروا إلى إرسال إنذارات مبكرة كانت له قيمة ما تدعو إلى الحيطة والحذر من حيث التخفيف من حالة الرعب من الحرب في أوساط العسكريين الذين يضعون تقييمات للوضع في ذروة الحرب الباردة» [٢٣].

لقد أنذر تقرير سري صادر عن «مجلس موارد الأمن القومي» في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٥١ «بأنه مع سير الأمور على النحو الحالي، فإن المعتدين السوفييت سيتمكنون في عام ١٩٥٣ إن لم يكن في عام ١٩٥٢من السيطرة الكاملة على الوضع العالمي» (٢٤).

مع أن روستزكي كان رجلاً ملتزماً بالعداء للشيوعية، فإنه أدرك عدم واقعية هذا التفكير. ولكنه، كما أوضح، قال: إن رأيه كان رأي الأقلية في الوسط الرسمي في واشنطن:

«إن الحقائق المتوفرة، حتى التي توفرت آنذاك، توحي بأن الاحتمال الأكبر كثيراً هو أن استراتيجية موسكو بعد الحرب - بما في ذلك تحويل أوروبا الشرقية إلى حاجز غربي - كانت في أساسها استراتيجية دفاعية. جادلت حول هذه المقولة مع بعض المحللين في وكالة المخابرات المركزية الذين يعملون في مجال التقييمات السوفييتية، ومع بعض العاملين في البنتاغون، ولكن وجهة النظر هذه لم تكن لها شعبية في ذلك الحين. ومع ذلك، فإنها حقيقة بسيطة أنه لم يُكتب أي سيناريو آنذاك، ولم يكتب منذ ذلك الحين أي سيناريو يظهر سبباً لرغبة الروس في الاستيلاء على أوروبا الغربية بالقوة، أو لقصف الولايات المتحدة، فلم يكن من شأن أي من هذين العملين أن يسهم بطريقة ملموسة في المصلحة الوطنية السوفييتية بل كان من شأن أي منهما أن يعرض الدولة السوفييتية لخطر التدمير. إن هذه المسألة الأساسية لم يطرحها أحد قط، لأن موشور الحرب الباردة أوجد في عقول المخططين الاستراتيجيين الدبلوماسيين والعسكريين صورة عالم أسود وأبيض، ولم يكن هناك لون رمادي» (٢٥).

نوّه روستزكي بأنه كان لابد من مرور سنوات عديدة قبل أن يتضح لواشنطن عدم وجود إنذارات، مبكرة أو غير مبكرة، لإبلاغها إليها. بيد أن ذلك لم يكن له تأثير ملحوظ على تعزيز القوة العسكرية في الولايات المتحدة أو على بروباغندا الحرب الباردة.